﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف: 93 - 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

مواصلةُ المهمّةِ بين السّدّيْن بعد نجاحِ المهمّةِ في مغربِ الشّمسِ ومطلعِها

تقُصُّ الآياتُ الكريماتُ هنا، الحدثَ الثّالثَ منَ الأحداثِ الكبرى، الّتي قام بها ذو القرنيْن، حين آتاه الله تعالى من كلّ شيءٍ سببًا، ومكّن له في الأرض بالمال والجنودِ والعتادِ، فبعد أن قصَّتْ خبرَه مع القوم القاطنين، جهةَ مغربِ الشّمس، ثمّ خبرَه مع أهل مشرقِ الشّمسِ، تنتقلُ الآياتُ الكريماتُ هنا إلى قصِّ خبرِه مع القوم القاطنين وراءَ السَّدَّيْن، ويُعانون منِ اعتداءاتِ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم قومٌ لا يكادون يَفقهون قولًا، مع عُجمةٍ في اللّسان، ورُعبٍ منَ العُدوان، وانعدامِ فطنةٍ واقيةٍ، أو تجربةٍ راقيةٍ، فطلبوا من ذي القرنيْن أن يبنيَ لهم سدًّا، يمنعُ عنهمُ السّطوَ، ويَحميهم منَ الغزو، الّذي يزاولُه قومُ يأجوجَ ومأجوجَ، على بلاد التّركِ، فيأتون على الأخضرِ واليابسِ، ويُهلكون الحرثَ والنّسلَ، من أجل ذلك هبّوا لتأمينِ بلادِهم بذلك السّدِّ الواعدِ، لتوسُّمِهم في قوّة ذي القرنيْن ومُكْنتِه، ما لا تَستطيعُه هممُ الملوك سواه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾: أصلُ (سدّ) يدلُّ على رَدْمِ شيءٍ ومُلاءمتِه، من ذلكَ سددتُ الثُّلْمَةَ سدًّا، وكلُّ حاجزٍ بينَ الشَّيئَينِ سدٌّ[1]، والسَّدُّ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدَّ).

إغلاقُ الخَلَلِ ورَدْمُ الثَّلْم، والاسْمُ السُّدُّ[1]، والسَّدُّ والسُّدُّ: الجَبَلُ والحاجِزُ، وقيل: السُّدُّ: ما كان خِلقةً، والسَّدُّ: ما كان صَنعةً، والسِّدادُ: ما يُسَدُّ به الثّلمةُ والثّغرُ[2]، والمُرادُ بالسَّدَّين في الآية: الجَبَلانِ، وسُمّيَ الجَبَلُ سدًّا؛ لأنَّه سدَّ فجًّا مِنَ الأرض[3].

2) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أصلُ (فقه) يَدُلُّ على إدْراكِ الشَّيْءِ والعِلْمِ به[4]، وأَصْله الفَتْحُ والشَقُّ، ومنه سُمِّيَ العِلْمُ فِقْهاً؛ لأنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ ليَكْتَشِفَ ما فيه[5]، ويأْتي الفِقْهُ بمعنى الفَهْم[6]، يُقال: فقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فهمتُهُ، والفِقْهُ أيضًا: الإدْراكُ والعِلْمُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فقاهَةً وفِقْهاً، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعلّمَ[7]، ثمَّ خُصَّ به عِلْمُ الدّينِ لشَرَفِه على جَميعِ العُلوم[8]، والمقصودُ بالفِقْه في الآية: الفَهمُ، أي: لا يفهمونَ قولَ غيرِهم[9].

3) ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾: يأجوج ومأجوج – بالهمز: من أَجَّت النّار تئجُّ: إذا سمعتَ صوتَ لهبها، أو مِنَ الماء الأُجاج، وهو الشَّديدُ الملوحة المُحرقُ من ملوحته، وقيل إنَّ اشتقاقَهما من الأجِّ وهو سرعةُ العدوّ، وقيل: من الأجَّة بالتَّشديد، وهي الاختلاطُ والاضطرابُ، وهما غيرُ مصروفَين، وقيل: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان[10]، وهما قبيلتان من بني آدم كثيرتا العدَد من ولدِ يافثَ بن نوحٍ ﷺ، يخرجان في زمن عيسى ﷺ آخرَ الزَّمان ويُفسدان في الأرض حتى يُهلكَهما اللّه تعالى[11].

4) ﴿خَرْجًا﴾: أصلُ (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيْءِ، ومنه الخُراجُ بالجَسَدِ[12]، والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخْرَجُ منَ المال في السَّنة بقَدْرٍ معلومٍ؛ لأَنَّهُ مالٌ يُخرِجُهُ المُعطي[13]،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سدَّ - سدد).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدد).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 572.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقه).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (فقه).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (فقه).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 23.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (أج - أجج).
(11) العتيبي، القيامة الصغرى، ص: 272، والفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص: 236.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(13) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

قالَ الزَّجّاجُ: الخَراجُ الفيءُ، والخَرْجُ الضَّريبةُ والجِزيةُ[1]، والمُراد بها في الآية: المالُ الَّذي يُدفَعُ للمَلِكِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلبُ سدٍّ يُرسّيه ذو القرنيْن ليَمنعَهم منَ الغاراتِ والغزوِ

سلك ذو القرنيْن طريقًا آخرَ انتهى به وبجيشه إلى بلادٍ بين جبلَين، ويسكنُ تلك البلادَ أقوامٌ لا تكادُ تُعْرَف لغتُهم إلّا بصعوبةٍ، وقد جاوروا يأجوجَ ومأجوجَ، وهم قومٌ مفسدون في الأرض، وعلى جانبٍ منَ الفوضَى والبِدائيّةِ[3]، فطلبَ القومُ الّذين هم دون السّدّين، من ذي القرنيْن، وهو ملكٌ عظيمٌ دان له المشرقُ والمغربُ، أن يبنيَ لهم سدًّا، مقابلَ عطاءٍ يقدّمونَه له، بحيث يكونُ حاجزًا بينهم وبين هؤلاء الغُزاةِ، الّذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون[4]، والسّورُ المحيطُ بالعمران، كان ذا فعاليّةٍ معتبرةٍ في الحمايةِ وصدِّ العدوان عنِ الأوطان، وخصوصًا في ذلك الزّمان.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية عن سابقِها:

القَصصُ القرآنيُّ وثيقُ الأركانِ متلاحمُ البُنيانِ

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ لما بينَهما من شِبه كمالِ الاتّصال؛ أي الاستئنافِ البيانيّ؛ لأنَّ جملةَ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تثيرُ في الذّهن سؤالًا، وتُشوِّقُ - قطعًا - إلى معرفةِ التّالي من أحداث هذه القصّةِ الفريدةِ في بابها، منَ الجهادِ في سبيل الله تعالى، وفتحِ البلدان من أقصى المعمورةِ إلى أقصاها.

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾:

علوُّ الهمّةِ في القائدِ يأبى له إلّا بلوغَ النّهاياتِ الحميدةِ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ "حرفُ

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 310.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 34.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 437.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 923.

غايةٍ"[1]؛ يُفصحُ عن غايةِ ذي القرنيْن في مسيره إلى وجهته الجديدةِ، كان يبتغي الخيرَ بإصلاح أحوالِ البلاد والعبادِ، فما يكونُ لقائدٍ مثله أن يَقنعَ باليسيرِ منَ الأعمال، وقد آتاه الله تعالى هذه الأسبابَ المُعينةَ، وتلك همّةٌ عاليةٌ قلّ نظيرُها؛ ولذلك نالَ شرفَ الذّكر والإشادةِ بإنجازاته في الكتابِ الخالد - القرآنِ الكريمِ - .

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

تقييدُ بلوغِ ذي القرنيْن بـ﴿إِذَا﴾ يقطعُ بأنّ مدخولَها ﴿بَلَغَ﴾ تحقّقَ فعلًا، وأنّه كان صادقَ العزمِ، جادَّ العزيمةِ، في تطوافِه بحثًا عن مظلومين أو منكوبين ليُنقذَهم، وقد حقّقَ الله تعالى له ما أراد؛ فوجد قومًا مظلومين منَ القبيلتيْن الظّالمتيْن ﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ فحصّنَهم منهم بحاجزٍ منيعٍ، ويوحي التّقييدُ بـ(إن) بافتراضِ بلوغِه بين السَّدَّيْن، لا القطعِ به؛ لذلك كان المقامُ لـ﴿إِذَا﴾ دونَها.

القائدُ المظفّرُ يُحصّنُ رعيّتَه منَ الأعداء مهما كانتِ الكُلْفةُ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

التّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿بَلَغَ﴾، في جملة الشّرطِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، يُقرِّرُ تَحقُّقَ بلوغِ ذي القرنيْن وجهتَه الجديدةَ، وأنّه قد وصل فعلًا إلى هذا الموقع، وممّا يدعمُ هذه الدّلالةَ ويُؤازرُها، إيثارُ تقييدِ بلوغِه بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ كما سبق بيانُ ذلك.

القائدُ المُؤيَّدُ منَ الله تعالى يَمضي إلى سبيله لا يَعوقُه شيءٌ

إيثارُ التّعبيرِ بالبلوغ دونَ مرادفاتِه:

إيثارُ مادّةِ البلوغِ في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ دون غيرِها، ممّا يقاربُها في الدّلالة يوحي بأنّه قد ترامَى إلى علمِ ذي القرنيْن أمرُ هؤلاء المظلومين، فأراد إجارتَهم منَ القوم الظّالمين ﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾، وأنّ بلوغَ هذه البلاد كانت حينئذٍ غايةً له، أمّا مادّةُ الوصولِ - مثلًا - فلا تعطي هذه الدّلالةَ المقصودةَ لسياق الأحداثِ؛ إذ ليس فيها سوى مطلقِ الوصول، بغضِّ النّظرِ عنِ الغاية.

الزّعيمُ الموفّقُ يتحسّسُ أحوالَ رعيّتِه فيُساعدُهم ويُعينُهم

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

سرُّ التّعبيرِ بالظَّرف ﴿بَيۡنَ﴾ في السّياق:

التّحديدُ الدّقيقُ لنقطةِ البلوغِ يكشفُ عنِ الإصرار على تحقّقِ الغايةِ

تدلُّ ﴿بَيۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، على التّحديدِ الدّقيقِ لنقطةِ الوصولِ، والمقصودُ تلك النّقطةُ، أو ذلك الموضعُ الفاصلُ بين الجبلَين المقصودَين.

دلالة (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ في السّياق:

السّدّانِ كانا مشهورَيْن معروفَيْن آنئذٍ

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، يمكنُ أن تكون اللّامُ للعهد، في لفظ ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، وهو ممّا يوحي بشُهْرتِهما في زمانِ ذي القرنيْن، أو بأنّه يعرفُهما بطريقةٍ ما، ويمكنُ أن تكونَ "لتعريف الجنس، أي بين سدَّين معيّنَين، أي: اتَّبع طريقًا آخرَ في غزوةٍ، حتى بلغ بين جبلَين معلومَين"[1]، و"موضعُ السّدّين في ناحية الشّمالِ، وقيل: جبلانِ بين أرمينيّة وأذربيجان، وقيل: هذا المكانُ في مقطعِ أرضِ التّرك"[2].

سرُّ التّعبيرِ بالوجود دونَ غيرِه:

القائدُ النّاجحُ يَعقدُ لكلّ مهمّةٍ نيّتَه، ويَمنحُها كاملَ همَّتِه

التّعبيرُ بكلمة ﴿وَجَدَ﴾، يوحي بأنّه كان مهمومًا بالبحثِ عن شيءٍ ووجده، وأنّه ما كان يتوجّهُ نحو جهةٍ ما، كيفما اتّفقَ له ولجيشه، بل كان يتّخذُ من كلِّ مكانٍ يؤمُّه وجهةً مقصودةً، متحرّيًا تحقيقَ غايةٍ شريفةٍ، من دعوةٍ إلى الله تعالى أو تنظيمٍ لحياةِ الرّعيّة، أو غيرِ ذلك.

معنَى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾:

الكشفُ عنِ ابتداء الحصولِ على الغايةِ المقصودةِ توفيقٌ منَ الله

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ لابتداءِ الغاية، أي أنّه وجد بدايةً من هذا الموضعِ - أي خلْفَ السّدَّيْن - قومًا لهم لغةٌ غريبةٌ؛ ليس منَ اليسيرِ فهمُهم ولا إفهامُهم، أي وجد بدايةً ﴿مِن﴾ الجهة الخلفيّةِ للسّدَّيْن إلى ما لا يعلمُ منتهاه لا هو ولا القومُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 31.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 498.

إيثارُ التّعبيرِ بـ ﴿دُونِهِمَا﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾:

مراتبُ الإنسانِ في الاحتياجِ إلى الإصلاحِ مُتفاوتةٌ

"دون: ظرفُ مكانٍ ملازمٌ للظّرفيّةِ الحقيقيّةِ أو المجازيّةِ"[1]، و"هو نقيضُ (فوْق)، نحوَ (هو دونَه)، أي: أحطُّ منه رُتبةً، أو منزلةً، أو مكانًا"[2]، وهذا يعني أنّ القومَ المُستجيرين بذي القرنيْن من يأجوج ومأجوج، كانوا في وادٍ أحطَّ منهما؛ فكان هبوطُ أولئك الظّالمين عليهم يدمّرُ ممتلكاتِهم، ويُهلك كثيرًا منهم.

سرُّ ورودِ ﴿قَوْمًا﴾ مؤخّرًا:

أئمّةُ الهُدى يَعتنون بالأحوالِ السّيّئةِ لإصلاحِ الفسادِ

الغرضُ من تأخير ﴿قَوْمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ هو توفيرُ العنايةِ على وصْفِهم الكاشفِ عن شدّةِ حاجتِهم، ولذا أخّرَهم، وقدّم تحديدَ مكانِهم، ورُتبتِهم المُتدنّيةِ، وذلك كلُّه لتوفير العنايةِ على بيان حاجتِهم للإصلاحِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ مَنفيًّا في قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾:

نفْيُ مقاربةِ الفعلِ أبلغُ من نفْيِ الفعلِ

﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ نافيةٌ[3]، وفي فعلِ المقاربةِ المنفيّ ﴿يَكَادُونَ﴾ قولان: **القول الأوّل**: أنّ إثباتَه نفيٌ، ونفيَه إثباتٌ، فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، لا يدلُّ على أنّهم لا يَفهمون شيئًا، بل يدلُّ على أنّهم قد يَفهمون على مشقّةٍ وصعوبةٍ، **والقولُ الثّاني**: أنّ (كاد) معناه المقارَبةُ، وعلى هذا القولِ فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، أي: لا يعلمون، وليس لهم قُرْبٌ من أن يَفقهوا.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَكَادُونَ﴾:

صعوبةُ فقه القولِ دالّةٌ على مشقّةِ المُهمّةِ

التّعبيرُ بنفْيِ المضارع ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾، دقيقٌ في تصويرِ صعوبةِ

(1) التّوحيديّ، البحر المحيط: 1/ 165.
(2) الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص: 3/ 64.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 232.

التّفاهم معهم، وأنّ هذا وذاك لا يتحقّقُ "إلّا بجهدٍ ومشقّةٍ من إشارة ونحوِها"[1]، وذلك "لغرابةِ لُغتِهم، وقِلّة فِطنتِهم"[2].

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ دون غيرِه:

الفقهُ والتّفقيهُ غايةُ اللّغاتِ المُفهمةِ للبلاغِ بين النّاسِ

سرُّ التّعبيرِ بالفقه دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ هو أنّ الفقهَ والتّفقيهَ غايةُ اللّغاتِ؛ فليس الشّأنُ أنّ لهم لغةً، وإنّما الشّأنُ أن يفقّه عنهم غيرُهم، أو أن يَفقهوا هم عن غيرِهم، وهذا من عطاءِ التّعبيرِ بالفقه، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، وإذا كان الفِقهُ "هو التّوصُّلُ إلى علمِ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ منَ العلم، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: 78][3]... وهذا لا يَنفي إمكانَ الفهم عنهم وإفهامِهم، وبخاصّةٍ من قِبَل عبدٍ ربّانيٍ مَنْفوحٍ بأسباب التّمكينِ من ربّه ﷻ مثلِ ذي القرنيْن، وقد قيل: "إنّ فهْمَ ذي القرنيْن لكلامِهم من جملةِ الأسبابِ الّتي أعطاه اللّه إيّاه"[4]، "ويجوزُ أن يكونَ المعنى أنّهم قومٌ مُتوغّلون في البداوةِ والبلاهةِ، فلا يَفهمون ما يقصدُه من يخاطبُهم"[5]، وكلُّ ذلك ممّا يبيّنُ مشقّةَ المهمّةِ.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ الجمعِ في: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

حينما يَتساوَى القومُ في عدمِ الفقهِ؛ تزدادُ مهمّةُ الدّاعيةِ صُعوبةً

فاعلُ الفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ "جُمِعَ كما جُمِعَ ﴿خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الحجّ: 19]"[6]؛ وفيه دلالةٌ على اجتماعِهم في وصْفِ عدمِ الفقه، وكلُّ ذلك ممّا يتآزرُ في بيانِ صعوبةِ المهمّةِ.

دلالةُ تنوّعِ القراءاتِ في الفعل: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

من لم يفقهْ في ذاتِه، لا يستطيعُ أن يُفقِهَ غيرَه

قُرِئَ هذا الفِعلُ بضمّ الياء وكسر القاف: ﴿يُفۡقِهُونَ﴾، وهي

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 319.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 244.
(3) الراغب، المفردات: (فقه).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 368.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 31.
(6) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1303.

قراءة حمزة والكسائي وخلف، يعني: أنّ كلامَهم لا يَفهمُه أحدٌ غيرُهم، وقرأ باقي العشرة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بالنّصب، يعني: أنّهم لا يَفقهون قولَ غيرِهم[1]، قال ابنُ عبّاس: لا يَفهمون كلامَ أحدٍ، ولا يَفهم النّاسُ كلامَهم[2]؛ فـ "مَن ضَمَّ (الياء) قدَّر حَذْفَ مفعولٍ، تقديرُه: لا يُفقهون أحدًا قولًا، ولا حذْفَ مع فتح الياء"[3].

"وكلتا القراءتَين على معنًى سواء، في أنّ القومَ ما زالوا في درجة متأخّرةٍ منَ الإنسانيّة، وأنّهم وإنِ ارتفعوا قليلًا عن هؤلاء القومِ الّذين صادفَهم عند مطلعِ الشّمس، إلّا أنّهم ما زالوا في مرحلة الصِّبا، لا يَحتملون تبعاتِ التّكاليف، ولهذا كان موقفُه منهم موقفًا وسطًا، فلم يَدعُهم إلى الإيمان باللّه؛ لأنّهم دونَ مستوى هذه الدّعوةِ، ولم يتركْهم وشأنَهم بل أخذَهم بشيءٍ منَ الوقاية والرّعايةِ، حتّى يَرشدوا ويَبلغوا مبلغَ الرّجال، وهم على وشكِ أن يبلغوه، فأقامَ لهم هذا السّدَّ الّذي يَحميهم من عواصفِ الشّرِّ الّتي تهبُّ عليهم من جيرانِهم: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾"[4].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْلًا﴾ في السّياق:

ممّا يَشقُّ على أئمّةِ الهُدى قلّةُ الفقه بالحقائقِ

جاء ﴿قَوْلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، مفعولًا منكَّرًا ليدلَّ على تجريدِهم من فقه أغلبِ الكلام، ولتأكيدِ أنّ فقهَهم قليلٌ جدًا، ولا يُجاوزُ حيّزَ ﴿يَكَادُونَ﴾، و﴿قَوْلًا﴾؛ لذلك لم ينصَّ على مثلِ ما قدّرَه بعضُ العلماء، حيث يقولُ: "أي لا يَفْقَهونَ كلامًا غيرَ كلامِهم، ولسانًا غيرَ لسانِهم"[5].

سرُّ فصلِ جملةِ: ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾:

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ عن سابقَتِها، لأنّها "استئنافٌ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/315، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 166.
(3) الإبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 4/ 271.
(4) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 706.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.

للمحاورةِ، وجملُ حكايةِ القولِ في المحاوراتِ لا تقترنُ بحرف العطفِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] الآية، فعلى أوَّلِ الاحتمالَين في معنى ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا﴾، أنّهم لا يُدركون ما يُطلبُ منهم مِن طاعةٍ ونظامٍ، ومع ذلك يُعربون عمّا في نفوسهم منَ الأغراض، مثلَ إعرابِ الأطفالِ، وعلى الاحتمال الثّاني أنّهم أمكنَهم أن يُفهمَ مرادُهم بعْدَ لأْيٍ"[1].

من توفيقِ الله للدّاعي إلى سبيلِه التّعجيلُ بظهورِ التّأثيرِ

دلالةُ مرجعِ الضّميرِ في الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

الضّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ عائد على هؤلاء القوم[2]، الّذين مِن دون السَّدَّيْن[3]، ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، أي: "قال مترجمُهم[4]، أو "أن يكون فهم ذي القرنيْن كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم من جملة ما آتاه اللّه تعالى من الأسباب"[5]، وقد جاء التّعبير بضمير الجمع تعظيمًا لأثر ذي القرنيْن، فبعدما كانوا جميعًا لا يكادون يفقهون قولًا، صاروا يستجيبون.

توفيقُ اللهِ جميعًا يَفقهون ويُجيبون

سرُّ النِّداء في جملة: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

نداءُ القوم ذا القرنيْن المحكيُّ في قوله تعالى: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، "نداءُ المستغيثين المُضطرّين، ونداؤهم إيّاه بلقبِ ذي القرنيْن، يدلُّ على أنّه مشهورٌ بمعنى ذلك اللّقبِ بين الأمم المُتاخمةِ لبلاده"[6]، ونداؤُهم ذا القرنيْن بأداةِ البعيدِ (يا) إنزالٌ له منزلتَه الّتي يَستحقُّها؛ لأنّه القائدُ المظفّرُ، وقد يكونُ نبيًّا إلى ذلك، وكأنّهم من خلال (يا) يقولون له: يا صاحبَ المكانةِ العاليةِ، والرُّتبةِ الرّفيعةِ

من سيماءِ العظماءِ أنّهم يَتواضعون للدّهماءِ والضّعفاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 32.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 225.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 293.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 244.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 32.

نلتمسُ إليك كذا وكذا؛ وذلك أدْعى لإجابتِهم إلى طلبِهم، وقد كان - وزيادةٌ، ونداؤهم إيّاه بوصْفِه ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، مباشرةً بلا تقديمِ ألقابِ التّمجيد - تواضعٌ يُعرفُ به العظماءُ، حين يَتواضعون، ويَتودّدون للضّعفاء.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾:

تأكيدُ المطالبِ إعلانٌ عن شدّةِ الرّغبةِ منَ الطّالبِ

دعمُ المطلبِ بعناصرَ توكيدٍ، لاستمالةِ المخاطَبِ - ذا القرنيْن - إلى تنفيذِ رغبتِهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ﴾، فبنَوا على ﴿إِنَّ﴾، وخَتموا السّببَ بالاسم ﴿مُفْسِدُونَ﴾، وقد ساق القومُ كلامًا طويلًا بين يدي المطلبِ الّذي فرَّعوه على تلك المقدّماتِ؛ فقالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، وهم بذلك يَتودّدون إلى ذي القرنيْن؛ فيَعرِضون عليه أجرًا.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ بين ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾:

حينما يَصدرُ الفسادُ من أخلاطٍ يكونُ عريضًا

لفظُ ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾، اسمٌ وضعَه القرآنُ حاكيًا به معناه، في لغة تلك الأمّةِ المناسبَ لحال مجتمعِهم، فاشتقَّ لهما من مادّة الأجِّ، وهو الخلطُ، إذ قد علمتَ أنّ تلك الأمّةَ كانت أخلاطًا من أصنافٍ"[1]، وقد قيل: هما أعجميان لا اشتقاقَ لهما، ومُنعا منَ الصّرف للعلميَّة والعُجْمة، وقيل: بل هما عربيّان، واختلفوا في اشتقاقِهما؛ فقيل: اشتقاقُهما مِنْ أجيج النّارِ؛ وهو التهابُها وشِدَّةُ تَوَقُّدِها، وقيل: من الأَجَّة؛ وهو الاختلاطُ أو شدةُ الحَرِّ، وقيل: من الأجِّ؛ وهو سُرْعةُ العَدْوِ؛ وقيل: من الأُجاجِ، وهو الماءُ المِلْحُ الزُّعاقُ، واحتملَ البعضُ أن يكونَ مأجوجُ مِنْ ماج يموج؛ أي: اضطرب؛ ومنه المَوجُ فوزنُه مَفعول والأصل: مَوْجوج، وفي هذا الأخير نظرٌ[2]، وأيًّا كان أصلُ اشتقاقه؛ فهو لفظٌ عربيٌّ فصيحٌ لوروده في القرآن الكريمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 545.

وانسيابِه على ألسُنِ الفصحاءِ دون إشكالٍ، وفي جناس الاشتقاقِ فيه، حكايةٌ للحالِ وتناسبٌ مع المقصودِ من بيان فسادِهم وتأكيدِه، حيث تجمعُهم مصلحةٌ واحدةٌ؛ وهي الإفسادُ.

سرُّ عطْفِ ﴿وَمَأْجُوجَ﴾ على ﴿يَأْجُوجَ﴾:

مُـراوحـةُ هـذا الاســـمِ، بين عـطْفِ طرفَيْه، أو كـونه مركّبًا تركيبًا مَزجيًّا

"يحتملُ أنّ الواو الواقعةَ بين الاسمَين حرفُ عطف؛ فتكونُ أمّةً ذاتَ شعبيْن، وهمُ المغولُ وبعضُ أصنافِ التّتار، وهذا هو المناسبُ لأصل رسم الكلمة، ولا سيّما على القول بأنّهما اسمان عربيّان"[1]، و"كان الاسمُ العامُّ الّذي يجمعُ القبيلتَين (ماجوج) ثمّ انقسمتِ الأمّةُ فسُمّيت فروعُها بأسماءَ خاصّةٍ، فمنها (ماجوج) و(ياجوج) و(تتر) ثمّ (التّركمان) ثمّ (التّرك)، ويحتملُ أنّ الواو المذكورةَ ليست عاطفةً، ولكنّها جاءت في صورة العاطفةِ، فيكونُ اللّفظُ كلمةً واحدةً، مركّبةً تركيبًا مزجيًّا، فيتكوّنُ اسمًا لأمّة وهمُ المغولُ"[2].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُفْسِدُونَ﴾ في الآية:

الـفـسـادُ أعـمُّ مـــفـــرداتِ الـتّـخـريـبِ، والتّعبيرُ عن كلِّ فعْلٍ مُريبٍ

لفظُ الفسادِ أعمُّ الألفاظِ الدّالّةِ على تخريب البلادِ، وإهدارِ مصالح العبادِ، وقد ردّده القرآنُ الكريم، في مقامات الذمّ كثيرًا، وهذا المقامُ أحدُ تلك المقاماتِ، لذلك بلغَ بالعلماء أن يُفسّروا إفسادَ يأجوجَ ومأجوجَ بمعان منها: إفسادُهم: أي أكلُهم بني آدمَ، وقالت فرقةٌ: إفسادُهم: إنّما عندهم توقّعًا، أيْ: سيُفسدون، فطلبوا وجهَ التّحرُّز منهم، وقالت فرقةٌ: إفسادُهم هو الظّلمُ والغشمُ والقتلُ، وسائرُ وجوه الإفسادِ المعلومِ منَ البشر، وهذا أظهرُ الأقوال؛ لأنّ الطّائفة الشّاكيةَ، إنّما تشكَّت من ضررٍ قد نالَها"[3]، ولفظُ الفسادِ محتملٌ لكلّ هذه الأقسامِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 33.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 542.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 499.

دلالةُ التّعبيرِ بالمُسنَدِ ﴿مُفۡسِدُونَ﴾ جمعًا:

اجتماعُهم في الإفسادِ بيانٌ لأحقيّةِ المُشتكين في مطلبِهم

التّعبيرُ بالفساد جمعًا في الخبر ﴿مُفۡسِدُونَ﴾، يدلُّ على أنّ الفسادَ قد عمَّ أفرادَهم، ولم يقتصرْ على أُمرائِهم أو كُبرائِهم، فهم وإن كانوا طائفتَين اثنتَين، غيرَ أنّ أفرادَهم لا يكادون يَنتهون عدًّا، لذلك جاء الخبرُ عنهم جمعًا في قولهم: ﴿مُفۡسِدُونَ﴾.

دلالةُ الظَّرفيّةِ وسرُّ التّعريفِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التغلغلُ في الإفسادِ طبْعٌ فيهم، والتّعبيرُ شفيعٌ للمطلوبِ

قُيِّد إفسادُ يأجوجَ ومأجوجَ، بحرف الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾ من قولِ القوم: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يدلُّ على تمكُّنِهم وتغلغلِهم في باب الإفسادِ، وأنّ إفسادَهم لم يتوقّف عند حدودِ الظّاهر، بل تجاوزَها إلى أعماق الباطنِ، كذلك في تعليق الإفسادِ بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، كنايةً عن كثرته فيهم وفيضانِه من ظلْمِهم العبادَ على البلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: 41] والمرادُ بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قول القوم: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ "أي: في أرضنا؛ بالقتلِ، والتّخريبِ، وإتلافِ الزّرع"[1]، أو مفسدون في جنس الأرضِ، أينما حلّوا أفسَدوا؛ ويَدْعَمُ ذلك ما جاء في حديث خروجِهم وفيه: "ويبعثُ اللّه يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كلّ حدبٍ يَنسلون، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرةِ طبريةَ، فيَشربون ما فيها، ويمرُّ آخرُهم، فيقول: لقد كان بهذه مرّةً ماءٌ"[2].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾:

التّفريعُ على المطلبِ تأسيسٌ صحيحٌ له

الفاءُ في قولهم: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ عاطفةٌ[3]، جاءت لتفريعِ العَرْضِ على إفسادِهم في الأرض[4]، فقد قدّموا مقتضياتِ رغبتِهم ورجائِهم، ثمّ فرَّعوا عليه طلبَهم في صورةِ عرْضٍ مهذّبٍ يليقُ بمقام ذي القرنيْن الّذي عايَنوه.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 293.
(2) الحميدي، الجمع بين الصّحيحين: 3/ 525.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 245.

الغرضُ منَ الاستفهامِ في سياق الآيةِ:

أسلوبُ العرضِ في الطّلبِ منَ الكبارِ أنسبُ لمقامِهم

قولُه تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، "الاستفهامُ في قولِهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ﴾، مستعملٌ في العرضِ"(1)؛ صدرَ منهم "على جهة حسنِ الأدبِ ... فعرضوا عليه أن يَجمعوا له أموالًا يُقيمُ بها أمرَ السَّدِّ"(2)، وهو "حكايةٌ لما عرَضَه هؤلاء القومُ على ذي القرنيْن من عروضٍ، تدلُّ على ثقتِهم فيه، وحسْنِ أدبِهم معه، حيث خاطبوه بصيغةِ الاستفهامِ الدّالّةِ على أنّهم يُفَوِّضون الأمرَ إليه"(3)؛ وذلك أدْعى للاستجابةِ، وقد كانت.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿نَجْعَلُ﴾:

التّعبيرُ مناسبٌ في مقامِ التّأنيسِ لتحقيقِ المطلوبِ

المناسبةُ جليّةٌ في استعمالِ المضارعِ ﴿نَجْعَلُ﴾ في قول القومِ لذي القرنيْن: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ لمقام الأدبِ وأسلوبِ العرضِ والالتماس، كذلك تدلُّ صيغةُ المضارعةِ في ﴿نَجْعَلُ﴾ على كمال استعدادِهم، لدفع المطلوبِ منهم، ولو كان على جهة الاستمرارِ التجدُّديِّ الّذي لا يتوقّفُ، فالخَرْجُ "هو الّذي يُجبيه السّلطانُ كلَّ سنةٍ"(4)، "والمالُ الّذي يُدفعُ للملك"(5).

سرُّ التّعبيرِ بفعلِ ﴿نَجْعَلُ﴾ في السّياقِ:

من فصيحِ البيانِ انتقاءُ ما يُبينُ عنِ القصْدِ في أوجزِ لفظٍ

إيثارُ مادّةِ (الجَعْل) في عَرْض القوم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ﴾ ينهضُ بدلالتَين، تتآزران كلتاهما على بيانِ القصْدِ في أوجز لفظٍ:

الدّلالةُ الأولى: التّنويهُ بنيَّة الشّروعِ في جمعِ الأجرِ، وأنّه ليس حاضرًا ولن يكونَ كثيرًا، وذلك يُلمحُ إلى ضعف حالتِهم الماليةِ؛ ويُؤيّدُه تنكيرُهم المفعولَ ﴿خَرْجًا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 573.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 499.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.

الدّلالةُ الثّانيةُ: أنّ (الجعل) يُصرِّحُ بمعنَى الجَعالةِ - بفتح الجيم، وكسرها، وضمّها[1] - وهي "ما يُجْعَلُ للإنسان على شيءٍ يعملُه"[2]، والمعنَى: "هل نجعلُ لك عطيّةً نُخرجُها إليك من أموالنا، وتجعلُ بينَنا وبينَهم سدًّا ما نتَّقي به الخرقَ؟"[3].

نُكتةُ تقديمِ القيْدِ على المفعولِ به في السّياقِ:

تخصيصُ العطاءِ ترغيبٌ في تحقيقِ المطلوبِ

قدَّم القومُ القيدَ بالجارّ والمجرور ﴿لَكَ﴾، في قولهم: ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، على المفعولِ ﴿خَرْجًا﴾ تأكيدًا لذي القرنيْن، على أنّ ذلك الخرجَ مِلكٌ لك خاصٌّ بك، لا تُنازَعُ فيه.

دلالةُ لفظِ ﴿خَرْجًا﴾ وتنكيرِه وتأخيرِه:

إغراءٌ بالخرجِ للمبادرةِ بإنجازِ السّدِّ، وانتظامُهم في سلك الحقوق

التّعبيرُ بـ ﴿خَرْجًا﴾، في قولهم لذي القرنَيْن: ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، يدلُّ على وعْيهم بطبائعِ العلاقاتِ، من توفيَة منجزِ العملِ أجرَه، من قِبَل المعمولِ له، وتنكيرُ ﴿خَرْجًا﴾ قد يدلّ على الإبهام المفيد للتّكثير، كما في: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: 113] فأومأوا بذلك لذي القرنين قصدًا للتكثير على إبهام؛ بحيث يُغري على إقامة السّدِّ، مع الاعتذار على عدم توفيتهم جزاءه على عظيم ما طلبوه منه ظنًّا منهم أنهم لن يستطيعوا أن يوفوه حقّه، وتعويلًا منهم على إمكاناتِ ذي القرنيْن الهائلةِ، الّتي عايَنوها في جيشه، وما معه، ممّا أجملَه الذِّكرُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، وفي تأخيرِ ﴿خَرْجًا﴾ تشويقٌ للعطاءِ، وحسنٌ في أدبِ العرضِ.

تنوّعُ القراءاتِ في ﴿خَرْجًا﴾ وثراءُ المعنَى:

في القراءاتِ ثراءٌ للعطاءِ وعلوٌّ لقدرِه

قَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بفَتْحِ الرّاءِ وأَلِفٍ بَعْدَها: ﴿خَرَاجًا﴾، وقَرَأَ الباقونَ بإِسْكانِ الرّاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ فيهما ﴿خَرْجًا﴾، ففي الآية

(1) البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 240.
(2) الحميري، شمس العلوم: 2/ 1108.
(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1304.

قراءتان: ﴿خَرْجًا﴾، و﴿خَرَاجًا﴾ [1]. "وفي اختلاف القراءتَين ثلاثةُ أوجه: أحدُها: أنّ الخراجَ: الغلّةُ، والخرجُ الأجرةُ، الثّاني: أنّ الخراجَ اسمٌ لما يخرجُ منَ الأرض، والخرجُ ما يُؤخذُ عنِ الرّقاب، الثّالثُ: أنّ الخرجَ ما يؤخذُ دفعةً، والخراجُ ثابتٌ مأخوذٌ في كلّ سنةٍ"[2] و"(الخَرْجُ) على الرّؤوسِ و(الخَراجُ) على الأرض، ولهذا يقال: أدِّ خَرْجَ رَأسِكَ وأدِّ خَراجَ أرضِكَ، وقيل: الخَرْجُ ما تبرّعتَ به، والخراجُ ما لزمَك"[3]، ففي اصطفاءِ الذّكرِ الحكيم، هذه الكلمة ﴿خَرْجًا﴾ ضغطٌ لعروضِ القوم المتعدّدةِ لذي القرنيْن، لقاءَ بناءِ السّدّ لهم، وتلك من ثمار تعدُّدِ القراءاتِ في هذه الكلمةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ في: ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾:

المؤمنون عندَ شُروطِهم، والعقدُ شريعةُ المتعاقِدين

في اشتراط القوم دفعَهم مقابلَ إقامةِ السّدِّ لذي القرنيْن بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾، احتياطٌ لضمانِ حقِّهم لديه؛ وبيانٌ عن يقظتِهم في ضبط التّعاملِ برفعِ شرْطِه عاليًا، قبلَ بدءِ التّنفيذِ، فـ "﴿عَلَىٰٓ﴾ ومدخولُها مُتعلّقان بمحذوفٍ صفةً لـ ﴿خَرْجًا﴾، أي: قائمًا على هذا الشّرط؛ فـ﴿عَلَىٰٓ﴾ هنا على بابها أي: للاستعلاءِ"[4]، و﴿أَن﴾ مصدريّةٌ، أي: (نجعلُ لك خرجًا على جعْلك لنا سدًّا) أي: على شرط جعلِك لنا سدًّا؛ فهذا جعْلٌ في مقابلِ جعْلٍ.

سرُّ تكرارِ الظّرفِ (بين) في ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾:

السّياقُ موضوعٌ بدقّةٍ وتوازنٍ، ودلالةٌ على المُرادِ

قولُهم: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، تكرارُ القوم في اشتراطِهم الظّرفَ (بين) تأكيدٌ على تحديد المهمّةِ بتفاصيلَ أوفى؛ وهذا دليلٌ على أنّهم أهلُ يقظةٍ، وإن كانوا لا يكادون يَفقهون لغةَ غيرِهم، ولا يكادُ غيرُهم يفقهُ لغتَهم، فهم يُريدون إقامةَ سدٍّ في

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 315.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 342.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 923.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

ذلك المكانِ المحدّدِ؛ بحيث لا يقتربُ عنه ولا يبتعدُ، وفي قولهم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾، توازنٌ يناسبُ توسيطَ مكانِ السّدِّ المطلوبِ بناؤُه؛ فمِن جهتِهم يقولون: ﴿بَيْنَنَا﴾ (ظرفٌ وضميرُهم مضافٌ إليه)، وفي المقابل يقولون: ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾، ليأتيَ نفسُ (الظّرفُ وضميرُ يأجوج ومأجوج مضافٌ إليه)؛ فحصلَ التّوازنُ.

دلالةُ البدءِ بلفظِ ﴿بَيْنَنَا﴾:

التّعبيرُ عن شدّةِ ما أصابَ القومَ من أذَى الغُزاةِ المُفسدين

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قدّم النّظمُ الكريمُ الظّرفَ الدّالَّ عليهم ﴿بَيْنَنَا﴾ على الظّرف الدّالِّ على المُفسدين ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾، إعلانًا عن شدّةِ ما أصابَهم من إفسادِهم، فقُدّمَ ما يكشفُ عنايتَهم بأنفسِهم، وشدّةَ بأسِ عدوّهم.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَدًّا﴾ وتأخيرِه:

من بليغِ البيانِ وضعُ المطلوبِ في الأخيرِ موضعَ الغاياتِ

جاء المفعولُ نكرةً في ﴿سَدًّا﴾ - أي: حاجزًا[1] - في قول القومِ لذي القرنيْن: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، لإفادة التّعظيمِ والتّفخيم؛ أي: أن تجعلَ بيننا وبينَهم سدًّا منيعًا، لا يَستطيعون تخطّيَه إلينا، ولا شكّ أنّهم طلبوا سدًّا قويًّا وعاليًّا لمّا رأوا ما يمتلكُه ذو القرنيْن من إمكاناتٍ تؤهّلُه لإقامة هذا السَّدِّ، وتأخير المطلوبِ على تحقيق وقوعِه، فوُضعَ مؤخّرًا موضعَ الغاياتِ والنّهاياتِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّدُّ والجبلُ:

السّدُّ حاجزُ الماءِ بين الجبلَيْن، والجبلُ وتدُ في الأرض منَ الحجارةِ والتّرابِ

السّدُّ أعمُّ منَ الجبل، فـ"السَّدُّ: الجبلُ"[2]، و"الحاجزُ بَين الشَّيئَين، والبناءُ في مجْرى الماء ليَحجزَه"[3]، "وحكى الزّجّاجُ: ما كان مسدودًا خِلقةً، فهو سُدٌّ، وما كان من عملِ النّاس، فهو سَدٌّ،

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 362.
(2) الحميري، شمس العلوم: (السد).
(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (السد).

وعلى ذلك وجهُ قراءةِ مَن قرأ: بين السَّدَيْن والسُّدَيْن، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: 9]، قال الزّجّاجُ: هؤلاء جماعةٌ أرادوا بالنّبيّ ﷺ سوءًا، فحالَ اللّه بينهم وبين ذلك، فجُعلوا بمنزلةِ مَنْ غُلّت يدُه، وسُدَّ طريقُه من بين يديه ومن خلفِه، وجُعل على بصرِه غشاوةٌ"(1).

و"الجَبَلُ: اسمٌ لكلِّ وتدٍ من أوتادِ الأرض إذا عظُمَ وطالَ منَ الأعلامِ والأطوارِ والشَّناخيبِ والأنضادِ، فإذا صغُرَ فهو من الآكام والقيرانِ، وجِبلَةُ الجبَلِ: تأسيسُ خلقتِه الّتي جُبِلَ عليها، وجِبلةُ الأرضِ: صِلابُها"(2).

الفقهُ والفهمُ:

الـفِـقْـهُ هو الـتّـوصّـلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهدٍ، والفهمُ إدراكُ كُـنْـه المعاني

"الفقهُ أخصُّ منَ العلم، ويقال: فقُهَ الرّجل فقاهَةً: إذا صار فقيهًا، وفَقِهَ؛ أي: فهمَ فقَهًا، وفَقِهَهُ أي: فهمَه، وتَفَقَّه: إذا طلبَه فتخصّصَ به، قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]"(3)، الفقهُ: العلمُ في الدّين، يُقال: فقُهَ الرّجل يَفْقُهُ فِقْهاً فهو فقيهٌ، وفَقِهَ يَفْقَهُ فِقْهاً إذا فهِمَ، وأفقهتُه: بَيَّنْتُ لهُ، والتَّفَقُّهُ: تَعَلُّمُ الفِقْهِ(4)، وقيل: الفقهُ التّفهمُ في الدّين والنّظرُ فيه، والتّفطّنَ فيما غمُضَ منه(5)، وقال أبو بكر: رجلٌ فقيهٌ؛ أي: عالمٌ، وكلُّ عالمٍ بشيءٍ فهو فقيه، من ذلك قولُهم: فلان ما يفقهُ ولا ينقه؛ معناه لا يعلمُ ولا يفهمُ، قال: وفقهتُ الحديث أفقهُهُ: إذا فهمتَه، وفقيهُ العرب: عالمُ العرب، وقول اللّه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]، معناه: ليكونوا علماءَ به(6)، أمّا "الفَهْمُ: فهيئةٌ للإنسان بها يتحقّقُ معانيَ ما يحسنُ، يقال: فهِمتُ

(1) ابن سيده، المُحكَم: (سدد).
(2) الخليل، العين: (جبل).
(3) الرّاغب، المفردات: (فهم).
(4) الخليل، العين: (فقه).
(5) الحربيّ، غريب الحديث: (فقه).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (فقه).

كذا، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: 79]، وذلك إمّا بأن جعل الله تعالى له من فضل قوّةِ الفهمِ ما أدرك به ذلك، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه وخصَّه به، وأَفْهَمتُهُ: إذا قلت له حتّى تصوَّرَه، والاستِفْهامُ: أن يطلبَ من غيره أن يُفَهِّمَهُ"[1].

الإفسادُ والإهلاكُ:

الإهـــــلاكُ الإفناءُ والموتُ، والإفسادُ عكسُ الصّلاحِ

"أهلكَ يُهلك، إهلاكًا، فهو مُهلِك، والمفعول مُهلَك - للمتعدّي - وأهلك فلانٌ: ارتكبَ أمرًا عظيمًا، وأهلَك اللّهُ الظّالمين: جعلَهم يَهلكون أو يموتون، أبادَهم ولم يتركْ لهم ... وعذَّبَهم ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ﴾ [الأعراف: 155]، وأهلَك الشَّيءَ: أفسدَه وخرّبه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۞﴾ [البلد: 6]"[2]، و"الفسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، فسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ وفَسُدَ فسادًا وفُسودًا، فهوَ فاسدٌ وفَسيدٌ فيهما ... ويُقالُ: أَفْسَدَ فُلانٌ المالَ يُفْسِدُه إفْسادًا وفَسادًا، واللّه لا يحب الفَسادَ، وفَسَّدَ الشيءَ إذا أَبارَه"[3]، فالإفسادُ التّخريبُ، والإهلاكُ الإبادةُ، والتّبذيرُ إفسادُ المال وإنفاقُه في السّرف؛ قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞﴾ [الإسراء: 26][4]، ويُقال: عاث في ماله، وقد يُستعملُ في غير المال، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞﴾ [البقرة: 60][5].

(1) الراغب، المفردات: (فهم).
(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (بذر).
(5) العسكريّ، التّلخيص في مَعرفَةِ أسماءِ الأشياء، ص: 108.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»